وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

هدايات القرآن وأفاق النهوض بدور المسلم المعاصر

اسم الباحث/ـة

د/ علي بوعزدية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حظيت قضية أزمة المسلم المعاصر باهتمام ملحوظ من لدن كثير من أهل الذكر والفكر، وسعوا من خلال ذلك إلى تقصي مكامن الأعطاب والخلل الذي لحقت به، وحالت من ثمّ دون تحقيق الإصلاح المنشود والتغيير المأمول، راصدين تجليّات تلك الأزمة، محدّدين مظاهرها، ومبرزين سماتها في أفق اقتراح الحلول والبدائل الممكنة.

تهدف الدراسة إلى تظهير أزمة تراجع دور المسلم المعاصر، وانكماش تفاعله في منافسته الأمم، ومزاحمتها في الفاعلية والانتاجية، وكيفية اطراح كل أنماط الفكر التبريري، والعقلية الانتظارية، والذهنية التواكلية التي طال ترقبها بخرق السنن الكونية من أجل حدوث معجزات تحابي المسلم المعاصر لينهض بدوره في خدمة الوطن والأمّة والإنسانية وذلك كلّه من خلال هدايات القرآن الكريم.نطرح من خلال ما قدّمناه السؤال المركزي: كيف نستثمر هدايات القرآن الكريم لنهوض بدور المسلم المعاصر في سياقات عالم مختلف لا مكان فيه للفاشلين؟

أما أصالة الدراسة فيكمن في إبراز دور المسلم المعاصر في القرن الواحد والعشرين، وأفاق النهوض به من خلال هدايات القرآن الكريم.

وتظهر أهمية الدراسة في الإشارة إلى ما يأتي:

١- إن المسلم صاحب رسالة عظيمة عليه تبليغها، وتحمل تبعاته، لينقذ نفسه وينقذ الإنسانية التائهة في ظلمات التحارب والتنازع، التي نجم عنها الأمراض النفسية والمعضلات الاجتماعية والأزمات الاقتصادية، فلا حديث عن النهوض الحضاري بدون دور فاعل ومركزي في حل مشكلات الإنسانية بشقيها المتخلف والمتقدم.

٢- على المسلم أن يحدد أهدافه، وأن يضاعف من نشاطه؛ ليرقى بنفسه إلى مستوى التحديات، تغيرات السريعة، ليتمكن من جديد من بناء إنسان وثقافة وحضارة التفاعل والسلام والتعايش.

منهج الدراسة: اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج الاستنباطي القائم على النظر والتفكر، والتحليل من خلال الكلام المفسرين في الآيات التي تمّ انتخابها.

٢ – ضبط المفاهيم:

٢. ١: مفهوم الهدايات القرآنية:

أ- **المعنى اللغوي:** الهاء والدال والحرف المعتلّ: أصلانِ [أحدهما] التقدُّمُ للإرشاد، والآخر بَعثة لَطَفٍ. فالأوَّل قولُهم: هدَيتُه الطَّريق هِدايةً، أي تقدّمتُه لأرشدَه. وكلُّ متقدِّمٍ لذلك هادٍ. قال:

إذا كان هادي الفتَى في البلا *** دِ صدر القَناةِ أطاعَ *الأميرا(١٧)

وينشعب هذا فيقال: الهُدَى: خِلافُ الضَّلالة. تقول: هَدَيته هُدىً. ويقال أقبلَتْ هَوادِي الخيل، أي أعناقها، ويقال هاديها: أوّلُ رَعِيل منها؛ لأنّه المتقدِّم. والهادِيَةُ: العصا، لأنَّها تتقدَّم مُمسِكَها كأنَّها تُرشِده.[١]

ويقول القرطبي: (والهدى هُدَيَانِ: هُدى الدلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم؛ قال تعالى :﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]، وقال :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢)، فأثبت لهم الهُدى الذي معناه الدلالة والدعوة، وتفرَّد هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق،

فقال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم :﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (القصص: ٥٦)، فالهدى هنا بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ٥)

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن زكريا، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، دط، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ج٦، ص٤٢.

ومِن هنا يتبين أن الهداية نوعان:

الأول: هداية البيان والدلالة والإرشاد والدعوة، وهي وظيفة الرسل وأتباعهم مِن الدعاة والمصلحين، وهؤلاء عليهم أن يؤدُّوا وظيفتهم، ويبذلوا جهدهم، مع العلم واليقين بأنهم لا يملكون النتائج، فالنتائج بيد الله وحده.

الثاني: فهو هداية التوفيق، أو خلق الهداية في قلوب الناس، وهذا النوع ملكٌ لله وحدَه، فهو سبحانه ملك القلوب ومصرِّفها ومقلبها، فالهداية نعمةٌ من الله تعالى يمنُّ بها على مَن يشاء من عباده، وهي فضل الله يؤتيه مَن يشاء.[1]

ب- **المعنى الاصطلاحي:**

المراد بالهدايات القرآنية في الاصطلاح: " الدلالات المبينة لما تضمنه القرآن الكريم من علوم وإرشادات تبين الحق من الباطل، وتوصل لكل خير، وتمنع من كل شر"[2].

فالهدايات القرآنية هي الدلالات المظهرة لما اكتنزه القرآن الكريم من العلم النافع، والعمل الصالح، منطوقًا ومفهومًا من خلال آياته وسوره وموضوعاته ، مما هو ظاهر أو مما يستنبط منه بعد التدبر والتأمل.

٢. ٢: مفهوم دور المسلم المعاصر:

الدور: هو جملة الأفعال والسلوكيات التي تصدر عن الفرد المسلم، والتي تعبر موازنة معتقداته وأفكاره وأخلاقه، واتجاهاته وقناعاته وآرائه، والتي من خلالها يعيش عصره.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، ج١، ص١٣٩.

(٢) طه عابدين طه وآخرون: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، ، الدمام، مكتبة المتنبي، ط١، ١٤٣٨ هـ- ٢٠١٧ م، ج١، ص٤٤. وفي هذه الدراسة التأصيلية اقتصر المؤلفون وفقهم الله في تعريف الهدايات على أنها دلالات مبينة لإرشادات القرآن الكريم، وقد أضفت كونها دلالات مبينة لعلوم القرآن، وأنها تبين الحق من الباطل؛ لكون الهدايات القرآنية علمية وعملية، وليست عملية فقط.

٣- المسلم المعاصر الشاهد:

تعرض للمسلم المعاصر صعاب عصية، وعقابات كأداء على جميع الصعد، فقد طالت عالم الأفكار و عالم الأشخاص و عالم الأشياء؛ مما جعل الحاجة تلح على تكشيفها وتصويبها وتقويمها، تصحيحا للمفاهيم حول حقيقة الوجوده، و علاقته بربه والانسان والكون، وهذا كله من خلال التماس هدايات الله عز وجل في القرآن الكريم:﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ [سورة فصلت:٤٢]، ليتمكن من القيام بما شرفه الله به من الشهادة على الخلق كما سيأتي بيانه في آية سورة البقرة.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [سورة البقرة:١٤٣].

٣. ١: أقوال العلماء في تفسير الآية:

قال علماؤنا: أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتولية خطير الشهادة على جميع خلقه، فجعلنا أولا مكانا وإن كنا آخرا زمانا، لا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلا[١]. "وسطا" أي: عدلا خيارا، وما عدا الوسط، فأطراف داخلة تحت الخطر،

فجعل الله هذه الأمة، وسطا في كل أمور الدين، وسطا في الأنبياء، بين من غلا فيهم، كالنصارى، وبين من جفاهم، كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطا في الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى[٢]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، ج٢، ص١٥٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ): المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، ص٧٠.

ففي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم الطيبات، عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئا، ولا يحرمون شيئا، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمّة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها.[1].

و قد وهب الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمّة سواهم، فلذلك كانوا (أُمَّةً وَسَطًا)[كاملين] ليكونوا (شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول، فهو مقبول، وما شهدت له بالرد، فهو مردود. فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين، لوجود التهمة فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة، فإنما المقصود، الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك، العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شك شاك في فضلها، وطلب مزكياً لها، فهو أكمل الخلق، نبيهم صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال تعالى: (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [2].

قال ابن جريج: قلت لعطاء، ما معنى قوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس؟

---

[1] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ): ص٧٠.

[2] المرجع نفسه: صص٧٠-٧١.

قال: أمّة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على من يترك الحق من الناس أجمعين(١).

أحدهما: أن وجه الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي ؛ فإن الشاهد على الشيء لا بد أن يكون عارفا به، ومن كان متوسطا بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب وثانيهما من الجانب الآخر، وأما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر، ولا حال الوسط أيضا.

وثانيهما: أن في لفظ الوسط إشعارا بالسببية، فكأنه دليل على نفسه،أي: أن المسلمين خيار وعدول؛ لأنهم وسط، ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين ، ولا من أرباب التعطيل المفرطين ، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا هم له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيي الهند أصحاب الرياضات

وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين : حق الروح ، وحق الجسد ، فهي روحانية جسمانية ، وإن شئت قلت إنه أعطاها جميع حقوق الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان وملك، فكأنه قال : جعلناكم أمة وسطا تعرفون الحقين، وتبلغون الكمالين (لتكونوا شهداء) بالحق (على الناس) الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين، والروحانيين إذ أفرطوا وكانوا من الغالين، تشهدون على المفرطين بالتعطيل القائلين: (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)، بأنهم أخلدوا إلى البهيمية ،

(١) معالم التنزيل: البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى : ٥١٠هـ)، محيي السنة ، تحقيق : محمد عبد الله النمر، وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ج١، ص١٥٩.

وقضوا على استعدادهم بالحرمان من المزايا الروحانية ، وتشهدون على المفرطين بالغلو في الدين القائلين : إن هذا الوجود حبس للأرواح وعقوبة لها.

فعلينا أن نتخلص منه بالتخلي عن جميع اللذات الجسمانية وتعذيب الجسد، وهضم حقوق النفس وحرمانها من جميع ما أعده الله لها في هذه الحياة ، تشهدون عليهم بأنهم خرجوا عن جادة الاعتدال، وجنوا على أرواحهم بجنايتهم على أجسادهم وقواها الحيوية ، تشهدون على هؤلاء وهؤلاء ، وتسبقون الأمم كلها باعتدالكم وتوسطكم في الأمور كلها ،

ذلك بأن ما هديتم إليه هو الكمال الإنساني الذي ليس بعده كمال؛ لأن صاحبه يعطي كل ذي حق حقه ، يؤدي حقوق ربه، وحقوق نفسه، وحقوق جسمه، وحقوق ذوي القربى، وحقوق سائر الناس (ويكون الرسول عليكم شهيداً) أي: إن الرسول – عليه الصلاة والسلام – هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط، وإنما تكون هذه الأمة وسطا باتباعها له في سيرته وشريعته، وهو القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حذا حذو المبتدعين ، فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي بأنهم قد ضلوا عن القصد ، يشهد لها الرسول – بما وافقت فيه سنته وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه – بأنها استقامت على صراط الهداية المستقيم ، فكأنه قال: إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم على العمل بهدي الرسول واستقمتم على سنته ، وأما إذا انحرفتم عن هذه الجادة ، فالرسول بنفسه ودينه وسيرته حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التي وصفها الله في كتابه.[1]

[1] تفسير المنار: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى : ١٣٥٤هـ): مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م، ج٢، ص٥.

ثم إن في اللام في قوله تعالى :﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وجهين :

الأول : إنها لام الصيرورة والعاقبة ؛ أي : فآل الأمر بهدايتكم وجعلكم وسطاً أن كنتم شهداء على الناس ، وهم أهل الأديان الأخر ؛ أي : بصراء على كفرهم بآيات الله وما غيروا وبدلوا وأشركوا وألحدوا ، مما قص عليكم في الآيات قبل ، حتى أحطتم به خبراً ، فعرفتم حق دينهم من باطله ، ووحيه من مخترعه .يعني: وإذا شهدتم ذلك منهم وأبصرتم فاشكروا مولاكم على ما أولاكم ، وعافكم مما ابتلى به سواكم ، حيث وفقكم للمنهج السويّ وهداكم للمهيع الرضي ، وذلك صار الرسول عليكم شهيداً بأنكم عرفتم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والنور من الظلمات ، بما بلغكم من وحيه وأراكم من آياته . فعظمت المنة لله عليكم ؛ إذ أصبحتم مهتدين بعد الضلالة ، علماء بعد الجهالة . ففيه إشارة إلى تحذير المؤمنين من أن يزيغوا بعد الهدى ، كما زاغ أولئك الذين نعى عليهم ضلالتهم ، فتقوم عليهم الحجة كما قامت من أولئك

الوجه الثاني: أن تكون اللام للتعليل ، على أصلها . والمعنى: جعلناكم أمة خياراً لتكونوا شهداء على الناس ، أي : رقباء قُوَّاماً عليهم بدعائهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الهدى وإنذارهم مما هم فيه من الزيغ والضلال ، كما كان الرسول شهيداً عليكم بقيامه عليكم بما بلغكم وأمركم ونهاكم وحذركم وأنذركم فتكون الآية نظير آية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾، وربما آثر هذا المعنى من قال : خير ما فسِّر القرآن بالقرآن ، لتماثل الآيتين بادئ بدء ؛ فإن الوسط بمعنى الخيار . وقد صرح به في قوله : ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وإلى هذا المعنى يشير قول مجاهد في الآية : لتكونوا شهداء لمحمد عليه السلام على الأمم اليهود والنصارى والمجوس : أي : شهداء على حقية رسالته ، وذلك بالدعوة إليها ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر الذي هو قطب الدعوة وروحها .

وبعد كتابة هذا رأيت- القائل: جمال الدين القاسمي- السمرقنديّ في تفسيره نقل خلاصة ما قلناه، وعبارته: وللآية تأويل آخر: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي : عدولاً : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ الخ يقول : إنكم حجة على جميع من خالفكم ، ورسول الله عليه السلام حجة عليكم . والشهادة في اللغة هو البيان ولهذا سمي الشاهد بينة؛ لأنه يبيّن حق المدعي؛ يعني إنكم تبينون لمن بعدكم، والنبيّ عليه السلام يبين لكم. انتهى.

وأوضح ذلك الراغب الأصفهاني: بأسلوب آخر فقال: إن قيل:

على أي : وجه شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة وشهادة الأمة على الناس ؟ قيل: الشاهد هو العالم بالشيء المخبر عنه مثبتاً حكمه، وأعظم شاهد من ثبت شهادته بحجة ، ولما خص الله تعالى الْإِنْسَانْ بالعقل ، والتمييز بين الخير والشر ، وكمله ببعثة الأنبياء ، وخصّ هذا الأمة بأتم كتاب ، كما وصفه بقوله : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾. وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾، فأفادناه عليه السلام وبينه لنا – صار حجة وشاهداً أن يقولوا : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ﴾. وجعل أمته، المتخصصة بمعرفته ، شهوداً على سائر الناس .

وإن قيل : هل أمته شهود كلهم أم بعضهم ؟ قيل : كلهم ممكن من أن يكونوا شهداء ؛ وذلك بشريطة أن يزكوا أنفسهم بالعلم والعمل الصالح ، فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهداً ومقبولاً . ولذلك قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾، وعلى هذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، فالقيام بالقسط مراعاة العدالة ،

وهي بالقول المجمل ثلاث: عدالة بين الْإِنْسَانْ ونفسه ، وعدالة بينه وبين الناس ، وعدالة بينه وبين الله عز وجل . فمن رعى ذلك فقد صار عدلاً شاهداً لله عز وجل .

وإن قيل: فهل هم شهود على بعض الأمة أم على الناس كافة ؟ قيل : بل كلٌّ شاهد نفسه ، وعلى أمته ، وعلى الناس كافة ، فإن من عرف حكمة الله تعالى وجوده ، وعدله ، ورأفته ، علم أنه لم يغفل تعالى عنه ، ولا عن أحد من الناس ، ولا بخل عليهم ولا ظلمهم ، ومن علم ذلك فهو شاهد لله على من في زمانه ، وعلى من قبله ومن بعده ، وعلى هذا الوجه ما روي في الخبر : " أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على الأمم " . انتهى كلام الراغب (١).

يقول ابن عاشور: "والحق عندي أن الآية صريحة في أن الوصف المذكور فيها مدح للآمة كلها لا لخصوص علمائها فلا معنى للاحتجاج بها من هاته الجهة على حجية الإجماع الذي هو من أحوال بعض الأمة من أحوال جميعها، فالوجه أن الآية دالة على حجية إجماع جميع الأمة فيما طريقه النقل لشريعة وهو المعبر عنه بالتواتر وبما علم من الدين بالضرورة وهو اتفاق المسلمين على نسبة قول أو فعل أو صفة للنبي صلى الله عليه وسلم مما هو تشريع مؤصل أو بيان مجمل مثل أعداد الصلوات والركعات وصفة الصلاة والحج ومثل نقل القرآن.....

والشهادة الأخروية هي ما رواه البخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " – حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ: يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبِّ فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ شُهُودُكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ عَدْلاً

(١) محاسن التأويل: القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢ هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ، ج١، ص ٤١٥.

(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).[١]

ومن مكملات معنى الشهادة على الناس في الدنيا وجوب دعوتنا الأمم للإسلام، ليقوم ذلك مقام دعوة الرسول إياهم حتى تتم الشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين.." [٢]

٣. ٢: الهدايات التي ترشد لها الآية:

من الهدايات القرآنية التي يمكن أن نستفيدها من قوله سبحانه:

أ- من شروط الشهادة على الخلق تزكية النفس بالعلم والعمل الصالح.

ب- علة للجعل، أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحوا.

ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات، والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم أو بعدكم. [٣]

ج- وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول عليه السلام كالرقيب المهيمن على أمته عدي بعلى، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم يكون الرسول شهيدا عليهم.[٤]

د- اليقين من لوازم الشاهد فقد تضمنت الآية، بيان لمكانة الأمة المحمدية التي أعطيت كل أصل ديني بدليله وحكمته، وكلفت العدل والاعتدال

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (٧٣٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

[٢] التحرير والتنوير: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، بيروت – لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٢١.

[٣] أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨ هـ، ج١، ص ١١٠.

[٤] المرجع نفسه: ج١، ص ١١٢.

في الأمر كله؛ أي: فلا يليق بها أن تبالي بانتقاد السفهاء المذبذبين بين الإفراط والتفريط ".[١]

هـ- الشهادة من المهام الجسام أنيطت بالأمة ولذلك لا يليق بالمسلم المعاصر التخلف عن القيام بها

و- لا تقبل شهادة المجروحين، وطريق التعديل هو لزوم غرز النبي محمد صلي الله عليه وسلم.

ز- الشهادة تقتضي العلو وهو علو عزة ورفعة لا علو تكبر وتجبر.

ح- سياق الآية يشير إلى أن أظهر صفات الشهداء على الناس الصلاة

ط- الوسطية صفة محورية تأهل المسلم المعاصر، فالمسلم كما قال الكلبي أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين.[٢].

ي- ومن مكملات معنى الشهادة على الناس في الدنيا وجوب دعوتنا الأمم للإسلام، ليقوم ذلك مقام دعوة الرسول إياهم حتى تتم الشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين.. [٣]

٤: المسلم المعاصر وأخذ الكتاب بقوة:

إحساس المسلم المعاصر وفيما المرحلة التي يعيش فيها؛ ينبغي أن يحركه للتنقيب عن كل ما يرفع من مستوى قدراته التي تؤهله من تأدية وظيفة الاستخلاف كما أراد له بارئه جل وعلا، و يأتي في مقدمة المعاني العميقة التي إن فقهها وأحسن استثمارها، هداية وردت في سورة مكية ألا وهي سورة مريم التي جاء فيها ذكر قصة يحي بن زكرياء عليهما السلام، هذه القصة التي حوت

(١) تفسير المنار: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى : ١٣٥٤هـ)، ج٢، ص٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص٧٠.

(٣) التحرير والتنوير: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، ج٢، ص٢١.

مجموعة من الصفات أزعم أنها انحسرت بشكل أربك المسلم المعاصر ؛ وخاصة صفة أخذ الكتاب بقوة، وفيما يأتي سأحاول استلهام جملة من الهدايات القرآنية التي ترشدنا لها الآيات من خلال المدونة التفسيرية لعلماءنا الأجلاء.

٤. ١: أقوال العلماء في تفسير الآيات:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [سورة مريم:١٢-١٥].

عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ في قوله تعالى: " يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ" التَّوْرَاةُ، وَحَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعَ (١).

أَيْ :خُذِ التَّوْرَاةَ بِقُوَّةٍ ، أَيْ : بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ(٢)، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه(٣).

وأَخْرَج ابن أبي شيبة، وعَبد بن حُمَيد ، وَابن المنذر ، وَابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ قال : بجد ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ قال : الفهم(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ** ﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ، أَيِ : الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالْجِدَّ وَالْعَزْمَ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): بيروت – لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ج٣، ص٣٧٨.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): ج٣ ج٣، ص٣٧٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص٤٩٠.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالماثور: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت (٩١١هـ) ، تحقيق: مركز هجر للبحوث، مصر، دار هجر، دط، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣، ج٢٠، ص٢١.

الْخَيْرِ وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ، وَالِاجْتِهَادَ فِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ مَعْمَرٌ : قَالَ الصِّبْيَانُ لِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا :

اذْهَبْ بِنَا نَلْعَبُ، فَقَالَ : مَا لِلَّعِبِ خُلِقْنَا فَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا"(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**صَبِيًّا**﴾ ، أَيْ : لَمْ يَبْلُغْ ، وَهُوَ الظَّاهِرُ ، وَقِيلَ : صَبِيًّا ، أَيْ : شَابًّا لَمْ يَبْلُغْ سِنَّ الْكُهُولَةِ ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانَ وَغَيْرُهُ ، وَالظَّاهِرُ الْأَوَّلُ ، قِيلَ ابْنُ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَقِيلَ ابْنُ سَبْعٍ ، وَقِيلَ ابْنُ سَنَتَيْنِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿ **وَحَنَانًا**﴾ وَالْحَنَانُ: هُوَ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَالْعَطْفِ وَالشَّفَقَةِ (٣)، رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله. (٤) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**مِنْ لَدُنَّا**﴾ ، أَيْ : مِنْ عِنْدِنَا.

وَأَصَحُّ التَّفْسِيرَاتِ فِي قَوْلِهِ ﴿**وَزَكَاةً**﴾ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتزكى عقله(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿ **وَكَانَ تَقِيًّا**﴾ ، أَيْ : **مُمْتَثِلًا** لِأَوَامِرِ رَبِّهِ مُجْتَنِبًا كُلَّ مَا نَهَى عَنْهُ ، وَلِذَا لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً قَطُّ ، وَلَمْ يُلِمَّ بِهَا (٦)، قالَ الْقُرْطُبِيُّ: مطيعا لله تعالى، ولهذا لم يعمل

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ -٧٧٤ هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢ ،١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ج ٥، ص٢١٦.

(٢)أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): ج٣ج٣، ص ٣٧٩.

(٣) المرجع نفسه: ص ٣٧٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص٤٩٠.

(٥) المرجع نفسه: ص٤٩٠.

(٦) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): ج٣، ص ٣٨٠.

خطيئة ولم يلم بها. [١].

وَفِي نَحْوِ ذَلِكَ أَحَادِيثُ مَرْفُوعَةٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَرْفُوعًا ، إِمَّا بِانْقِطَاعٍ ، وَإِمَّا بِعَنْعَنَةِ مُدَلِّسٍ : وَإِمَّا بِضَعْفِ وَاوٍ ، كَمَا أَشَارَ لَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ[٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ ،

الْبَرُّ بِالْفَتْحِ هُوَ فَاعِلُ الْبِرِّ بِالْكَسْرِ كَثِيرًا أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ كَثِيرَ الْبِرِّ بِوَالِدَيْهِ ، أَيْ : مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ، لَطِيفًا بِهِمَا ، لَيِّنَ الْجَانِبِ لَهُمَا[٣]، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل[٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿ **وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا**﴾ ، أَيْ : لَمْ يَكُنْ مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَطَاعَةِ وَالِدَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُطِيعًا لِلَّهِ ، مُتَوَاضِعًا لِوَالِدَيْهِ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَالْجَبَّارُ : هُوَ كَثِيرُ الْجَبْرِ ، أَيِ : الْقَهْرِ لِلنَّاسِ ، وَالظُّلْمِ لَهُمْ ، وَكُلُّ مُتَكَبِّرٍ عَلَى النَّاسِ يَظْلِمُهُمْ : فَهُوَ جَبَّارٌ[٥] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**﴾ ،

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنَّهَا التَّحِيَّةُ الْمُتَعَارَفَةُ، فَهِيَ أَشْرَفُ مِنَ الْأَمَانِ ؛ لِأَنَّ الْأَمَانَ مُتَحَصَّلٌ لَهُ بِنَفْيِ الْعِصْيَانِ عَنْهُ وَهُوَ أَقَلُّ دَرَجَاتِهِ ، وَإِنَّمَا الشَّرَفُ فِي أَنْ سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَحَيَّاهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي الْإِنْسَانُ فِيهَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ ، وَقِلَّةِ الْحِيلَةِ وَالْفَقْرِ

---

[١] الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، ج١١،ص٨٨.

[٢] تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ -٧٧٤ هـ)، ج٥، صص٢١٧-٢١٨.

[٣] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): ج٣، ص ٣٧٩.

[٤] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص٤٩١.

[٥] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): ج٣، ص ٣٨٠.

إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَظِيمِ الْحَوْلِ[١] . وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: إِنْ عِيسَى وَيَحْيَى الْتَقَيَا فَقَالَ لَهُ عِيسَى : اسْتَغْفِرْ لِي ، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، فَقَالَ الْآخَرُ : اسْتَغْفِرْ لِي ، أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، فَقَالَ عِيسَى : أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي ، سَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِي وَسَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ [٢].

٤. ٢: الهدايات التي ترشد لها الآيات:

من الهدايات القرآنية التي يمكن أن نستفيدها من آيات سورة مريم ما يأتي:

أ-من مقتضيات أخذ الكتاب بقوة الفهم الصحيح للقرآن، والعمل بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فَيَعْتَقِدَ عَقَائِدَهُ، وَيُحِلَّ حَلَالَهُ ، وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ ، وَيَتَأَدَّبَ بِآدَابِهِ، وَيَتَّعِظَ بِمَوَاعِظِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جِهَاتِ الْعَمَلِ بِهِ والدعوة إليه.

ب-الرسل والأنبياء نماذج للتأسي والاقتداء وقد أمر الله عليه بالاقتداء بهديهم، والامر النبي هو أمر لأمته، فصار لزاما على المسلم المعاصر أن يسلك سبيلهم.

ج-الجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه[٣]، من شروط النهوض بالمسلم المعاصر

د- استصحاب الصبر حال الاقتناع، و حال الاقناع، من لوازم أخذ الكتاب بقوة

هـ-من الأسباب التي ترفع من كفاءة المسلم المعاصر أن يؤتيه الله عز وجل الحكم إذ هو عاصمة من تنكب جادة الصواب فالْعِلْمُ النَّافِعُ ، وَالْعَمَلُ بِهِ يَمْنَعُ الْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ مِنَ الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ وَالنُّقْصَانِ[٤] .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، - ١٤٢٢ هـ، ج٤، ص٨.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن : ابْنُ جَرِيرٍ الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى : ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، د ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج١٨، ص١٦٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص٤٩٠

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): ج٣، ص ٣٧٩.

و- ان طريق تحقيق الأمن والسلام في النفس والمجتمع والعالم أجمع سلوك نهج الرسل والانبياء واظهر ما في هذا المسلك هو أخذ الكتاب بقوة.

ز- من مواطن العطب الذهول عن صفات الرأفة والشفقة والتواضع حال أخذ الكتاب بقوة تحملاً وتبليغاً.

ح- سياق الآيات جاء في سورة مريم المكية، والمرحلة المكية مرحلة الضعف وعدم التمكين، وهذا ما يجعل التواصي بأخذ الكتاب بقوة متاكداً.

ط- نهوض المسلم المعاصر يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة(١).

ي- أخذ الكتاب بقوة لبد أن يصطبغ بنعت الحنان المتضمن لمعاني الشفقة والرحمة بالغير، وهذا الذي سنجليه في العنصر الآتي.

٥- المسلم المعاصر الرحماني:

الرحمانية صفة مركزية في حياة المسلم المعاصر، فهي من نعوت التخلق التي ينبغي أن تظهر على كل حركاته و سكاناته، وخاصة وهو يحي في مرحلة زمنية بلغ فيها القتال والتحارب والتناحر مبلغا تتفطر منه القلوب ، بل ويبشر بها ويمكن لها بين الناس، بغية النهوض بالعالم إلى الأفضل، ومن خلال التأمل فيما جاء في التنزيل الحكيم نلحظ آية تصف رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بصفة الرحمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧]، وسنسعى من خلال أقوال العلماء في الآية أن نقف على بعض الهدايات التي يحتاجها المسلم المعاصر ليأدي دوره كما أراده الله عزوجل له.

٥. ١: أقوال العلماء في تفسير الآية: هذه السورة أقيمت على عماد إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص٤٩٠.

المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن بدعا من الرسل، وذكروا إجمالاً، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل. وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل(١).

روي عن ابن عباس أنه قال: كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدق به سعد، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق.

وقال ابن زيد: أراد بالعالمين المؤمنين خاصة (٢)

وقال أيضاً رضي الله عنه: هذا عامّ للبَرِّ والفاجر، فمن آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن كفر به صُرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة.

وقال ابن زيد: هو رحمة لمن آمن به خاصة (٣).

في الآية ثناء من الله عز وجل على رسوله، الذي جاء بالقرآن فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فهو رحمته المهداة لعباده،

فالمؤمنون به، قبلوا هذه الرحمة، وشكروها، وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرا، وأبوا رحمة الله ونعمته".(٤)

وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطريّ، إلا حال كونك رحمة للخلق،

فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين، وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية،

---

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، ج١٧، ص١٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، ج١١، ص٣٥٠.

(٣) زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢ هـ، ج٣، ص ٢١٨.

(٤) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ): تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٥٣٢.

وجوز كون رحمة مفعولاً له، أي : للرحمة ، فهو نبيّ الرحمة[١] .

قال الرازي : " إنّه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم حين لم يكن يطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميّز الحلال من الحرام، ثمّ إنّما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قريناً له . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ﴾ ، وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه[٢].

جاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين... وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف الذي عطفت به. وذكر فيها الرسول، ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير ﴿ رحمة﴾ للتعظيم؛ إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة

---

(١) محاسن التأويل: القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢ هـ)، ج٧و ص ٢٢٦.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازى: محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى، بيروت، دار إحياء التراث العربى، ج٢٢، ص ١٩٣.

التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعا لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيا، فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب، وهي:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

إذ تلك الكلمة قصاراها كما قالوا: أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل دون خصوصية أزيد من ذلك فجمع ستة معان لا غير خصوصية إنما هي وفرة معان. وليس تنكير حبيب ومنزل إلا للوحدة لأنه أراد فردا معينا من جنس الأحباب وفردا معينا من جنس المنازل، وهما حبيبه صاحب ذلك المنزل، ومنزله[1]. **وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين:**

الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة،

والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.[2]

والتعريف في ﴿العَالمِينَ﴾ لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم، والعالم: الصنف من أصناف ذوي العلم، أي الإنسان، أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة كما تقدم من احتمال المعنيين في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فإن أريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس[3]... ..

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها؛ لأن تساس بالرحمة وأن تدفع عنها

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، ج١٧، ص١٢١.

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)،: ج١٧، ص١٢٢.

(٣) المرجع نفسه: ج١٧، ص١٢٣.

المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وما يتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم. وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة(١). هذا وإن أريد بـ ﴿ الْعَالَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به. إذ هو مخلوق لأجل الإنسان قال تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾وقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو وحرم تعذيب

(١) المرجع نفسه: ج١٧، ص١٢٤.

الحيوان لغير أكله، وعد فقهاؤنا سباق الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه.

ورغبت الشريعة في رحمة الحيوان ففي حديث **الموطأ** عن أبي هريرة مرفوعا: " أن الله غفر لرجل وجد كلبا يلهث من العطش، فنزل في بئر فملأ خفه ماء وأمسكه بفمه حتى رقي فسقى الكلب، فغفر الله له.[١]

أما المؤذي والمضر من الحيوان فقد أذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم. وفي تفاصيل الأحكام من هذا القبيل كثرة لا يعوز الفقيه تتبعها[٢].

وقال صلّى الله عليه وسلم: " إن الله بعثني رحمة مهداة " [٣].

٥. ٢: الهدايات التي ترشد لها الآية:

من الهدايات القرآنية التي يمكن أن نستفيدها من قوله سبحانه:

أ- الشرائع والأحكام التي أرسل محمد صلى الله عليه وسلم بها مناط السعادة في الدارين.

ب- الإعراض عن الرحمة المهداة ، وتفويت الانتفاع بذلك، دلالة " فساد استعداده وقبح طويّته، ولم يقبل هذه الرحمة، ولم يشكر هذه النعمة، فلم يسعد لا في دين ولا دنيا، كما قال ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ ﴾

وقال في صفة القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ ﴾[٤]

---

[١] أخرجه مالك بن أنس في الموطأ (١٦٦١) من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

[٢] التحرير والتنوير: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، ج١٧، ص١٢٤.

[٣] أخرجه الحاكم في مستدركه (١٠٠) من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

[٤] تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغى: مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، ج١٧، ص ٧٨.

ج- من رحمة المسلم المعاصر بأبناء زمانه تكشيف حقيقة بعثة النبي محمد صلى الله عليه و سلم و افتقار الناس جميعاً إلى رسالته، " وذلك أنّ الله تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان ، ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان، وينقذهم من النار والعار، ويرفع عنه الآصار، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال، ويرشدهم إلى صراط الحق.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

د- إن التخلق بصفة الرحمة يحمل المسلم المعاصر على الحرص على بيان الحق للناس وحملهم عليهم ليخرجهم من ظلمات الإلحاد إلى نور الإيمان ومن ذلك عبادة غير الله إلى عز العبودية ومن التحارب والتنافر إلى التعايش والتجاذب

هـ-إن الرحمانية من الصفات التي لبد أن تكون في الجيل الذي وعده الله بالنصر والتمكين، فهي رحمة عز وعلو لا رحمة ذل وانبطاح.

و-إن الرحمانية صفة مركزية، بل هي من أخص صفات عباد الله الصالحين الذين ضمن الله لهم الرفعة والتمكين،

ولذلك كانت النعت التي امتدح به النبي محمد صلي الله عليه في أثناء هذه الآيات.

ح- الرحمانية عند المسلم المعاصر لا تقتصر على الإنسان، بل هي تحيط الحيوان والنبات وكل ما خلق الباري جل جلاله.

ط-اتصاف المسلم المعاصر بالرحمانية تصيره منبعا لكل معاني الانشراح الأمل والفأل الحسن، وهو ما سنبينه في عنصر بث الأمل.

---

(١) محاسن التأويل: القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢ هـ)، ج٧، ص ٢٢٦.

٦- المسلم المعاصر وبث الأمل:

بث الأمل من أكبر معارك النهضة التي ينبغي أن تخاض للنهوض بالمسلم المعاصر، فلا يخفى على ذي لب أن أخلاق اليأس والاحباط وضعف الشغف والعجز، صفات ذميمة تسللت إلى المسلم المعاصر فأفقد صفاته، و انطلاقه للمعالي التي هي ــ من المفروضــ أن تكون من أبرز صفاته ، ولعل ذلك راجع إلى ما أصاب الأمة من تراجع وتقهقر على جميع الأصعدة، ولكن المتأمل في كتاب الله عز وجل يلمح من الهدايات ما يحمله على رفع شعار التحدي والتصميم على خوض غمار النزال مستصحباً معاني وهدايات القرآن، تاركاً خلفه ظهرياً كل معاني اليأس والحزن أليس الله معنا.

٦. ١: أقوال العلماء في تفسير الآيات:

أ- تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة التوبة: ٤٠].

﴿ إِذْ يَقُولُ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لِصَاحِبِهِ ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ بعونه ونصره وتأييده[١]، والحفظ ..[٢]

ففي تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال.

ومعنى﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنا ﴾ أي بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة، روى الترمذي والحارث بن أبي أسامة قالا: حدثنا عفان قال حدثنا همام قال أخبرنا ثابت

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي المتوفى:فى : ١٣٧٦هـ)، ص٣٣٨.

(٢) محاسن التأويل: القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢ هـ)، ج٥، ص ٤١٨.

عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في الغار: لو أن أحد هم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما). قال المحاسبي: يعني معهما بالنصر والدفاع، لا على معنى ما عم به الخلائق، فقال: ﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ﴾.

وقد كان حزن الصديق إنما كان خوفا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصل إليه ضرر، ولم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الوقت معصوماً وإنما نزل عليه﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (١).

﴿فَأَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} أي: الثبات والطمأنينة، والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ (٢).

وكان النبي محمد صلى الله عليه و سلم رأى منه أمارة الحزن والجزع، أو كلما سمع منه كلمة تدل على الخوف والفزع : لا تحزن ، الحزن انفعال نفسي اضطراري يراد بالنهي عنه مجاهدته، وعدم توطين النفس عليه، والنهي عن الحزن وهو تألم النفس مما وقع ، يستلزم النهي عن الخوف مما يتوقع، وقد عبر عن الماضي بصيغة الاستقبال (يقول) للدلالة على التكرار المستفاد من بعض الروايات، ولاستحضار صورة ما كان في ذلك الزمان والمكان ليتمثل المخاطبون ما كان لها من عظمة الشأن، وعلل هذا النهي بقوله: إن الله معنا أي : لا تحزن ؛ لأن الله معنا بالنصر والمعونة والحفظ والعصمة ، والتأييد والرحمة، ومن كان الله تعالى معه بعزته التي لا تغلب وقدرته التي لا تقهر ، ورحمته التي قام ويقوم بها كل شيء ، فهو حقيق بألا يستسلم لحزن ولا خوف ، وهذا النوع

(١)الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، ج٨، ص١٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص٣٣٨.

من المعية الربانية أعلى من معيته سبحانه للمتقين والمحسنين في قوله : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾والفرق بينهما أن المعية في آية سورة النحل لجماعة المتقين المجتنبين لما يجب تركه والمحسنين لما يجب فعله ، فهي معللة بوصف مشتق هو مقتضى سنة الله في عالم الأسباب لكل من كان كذلك ، وإن كان الخطاب في النهي عن الحزن قبلها للرسول ـ صلى الله عليه وسلم .(١)

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي : أَمَنَتَه التي تسكن عندها القلوب ﴿ عَلَيْهِ ﴾

أي: على النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ يعني الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه في الغار ، أو ليعينوه على العدوّ يوم بدر والأحزاب وحنين ، فتكون الجملة معطوفة على قوله : ﴿ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ وقوّى أبو السعود الوجه الثاني ، بأن الأول يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم .

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ أي : المغلوبة المقهورة ، و الكلمة الشرك ، أو دعوة الكفر ، فهو مجاز عن معتقدهم الذي من شأنهم التكلم به على أنها الشرك ، أو هي بمعنى الكلام مطلقاً على أنها دعوة الكفر﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ يعني التوحيد، أو دعوة الإسلام كما تقدم ،

أي: التي لا تزال عالية إلى يوم القيامة ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ بالرفع على الابتداء و ﴿هِيَ الْعُلْيَا) مبتدأ وخبر . أو تكون هي فصلاً، وقرئ بالنصب أي : وجعل كلمة الله ، والأول أوجه وأبلغ ، لأن الجملة الإسمية تدل على الدوام والثبوت ، وإن الجعل لم يتطرق لها؛ لأنها في نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها ، وفي إضافة الكلمة إلى الله إعلاء لمكانها ،

وتنويه لشأنها ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي : غالب على ما أراد :

(١) تفسير المنار: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى : ١٣٥٤هـ)، ج١٠، ص٣٦٩.

﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وتدبيره .[1]

ب- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [سورة آل عمران:١٣٩].

عزّاهم وسلاهم الله عزوجل بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح، وحثهم على قتال عدوهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال ﴿وَلا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعفوا ولا تجبنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما أصابكم.

أصابكم. ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة." وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾أي لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بصدق وعدي.[2]

يقول تعالى مشجعاً لعباده المؤمنين، ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم:

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾.[3]

الوهن : الضعف في العمل وفي الأمر ، وكذا في الرأي ،

---

[1] محاسن التأويل: القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢ هـ)، ج٥، ص ٤٢٠.

[2] الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)، ج٤، ص٢١٧.

[3] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)، ص ١٥٠.

والحزن: ألم يعرض للنفس إذا فقدت ما تحب ، أي تضعفوا عن القتال وما يلزمه من التدبير بما أصابكم من الجرح والفشل في أحد ولا تحزنوا على من قتل منكم في ذلك اليوم ، ويصح أن يكون هذا النهي إنشاء بمعنى الخبر ، أي إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي أن يكون موهناً لأمركم ومضعفاً لكم في عملكم ولا موجباً لحزنكم وانكسار قلوبكم ؛ فإنه لم يكن نصراً تاماً للمشركين عليكم ، وإنما هو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم – صلى الله عليه وسلم – في تدبيره الحربي المحكم ، وفشلكم وتنازعكم في الأمر ، وذلك خروج عن سنة الله في أسباب الظفر ،

وبهذه التربية تكونون أحقاء بألا تعودوا إلى مثل تلك الذنوب ، فتكون التربية خيرا لكم من عدمها بل يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتاً بما تربيكم على اتباع سنن الله في الحزم والبصيرة وإحكام العزيمة واستيفاء الأسباب في القتال وغيره ، وأن تعلموا أن الذين قتلوا منكم شهداء وذلك ما كنتم تتمنونه كما سيأتي ، فتذكره مما يذهب بالحزن من نفس المؤمن (وهاتان العلتان قد ذكرتا في الآية التي بعد هذه) وكيف تهنون وتحزنون وأنتم الأعلون بمقتضى سنن الله – تعالى – في جعل العاقبة للمتقين الذين يتقون الحيدان عن سننه ، وفي نصر من ينصره ويتبع سننه بإحقاق الحق وإقامة العدل ،

والمؤمنون أجدر بذلك من الكافرين الذين يقاتلون لمحض البغي والانتقام ، أو الطمع فيما في أيدي الناس ، فهمة الكافرين تكون على قدر ما يرمون إليه من الغرض الخسيس ، وما يطلبونه من الغرض القريب ، فهي لا تكون كهمة المؤمن الذي غرضه إقامة الحق والعدل في الدنيا ، والسعادة الباقية في الآخرة ، أي إن كنتم مؤمنين بصدق وعد الله بنصر من ينصره ، وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسننه في نظام الاجتماع بحيث صار هذا الإيمان وصفا ثابتا لكم حاكما في ضمائركم وأعمالكم فأنتم الأعلون وإن أصابكم ما أصابكم، وإذا

كان الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن ما أصابكم يعدكم للتقوى ، فتستحقون تلك العاقبة وهي علو السيادة عليهم . وقيل: إن كنتم مؤمنين متعلق بالنهي وجملة وأنتم الأعلون حال معترضة. أي فلا تضعفوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين؛ لأن من مقتضى الإيمان الصبر والثبات والرغبة في إحدى الحسنيين – الظفر أو الشهادة – على أن مجموع الأمة موعود بالحسنيين جميعاً ، وإنما يطلب إحداهما الأفراد .[1] ومن معاني قول الله تعالى: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ، ولا تحزنوا على من قتل منكم ، والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم ، فإن مصير أمرهم إلى الدمار حسبما شاهدتم من عاقبة أسلافهم ، فهو تصريح بالوعد بالنصر بعد الإشعار به فيما سبق ، وقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي أو بالأعلون . وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه. أي : إن كنتم مؤمنين ، فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، والثقة بصنع الله تعالى ، وعدم المبالاة بأعدائه . أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون. فإن الإيمان يقتضي العلو لا محالة – أفاده أبو السعود – .[2]

٦. ٢: الهدايت التي ترشد لها الآيات:

من الهدايات القرآنية التي يمكن أن نستفيدها من قوله سبحانه:

أ– ا لمسلم المعاصر يركز على الخير وينشره، ويتغاضى عن الشر ويستره فهذا ما يشيع الأمل وإمكان النهوض بالأمة.

ب– هذه الآيات تهدي المسلم المعاصر أن يكون مورداً من موارد الأ وسيف يقطع اليأس في إنسانية أستسلمت لواقع كئيب ونظرة سوداوية طالتها.

---

[1] تفسير المنار: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى : ١٣٥٤هـ)، ج٤، ١٢٠.

[2] محاسن التأويل: القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢ هـ)، ج٢، ص ٤١٦.

ج- من هدايات الآيات أن الأمل والخير كله في تحقيق العبودية لله، وعل المسلم المعاصر أن يدحض كل ناعق يوهم العباد بغير هذا.

د – التأييد والنصر والحفظ ينزل على العبد من الله على قدر تحقق المرء بمنزلة التوكل، وقد تجلى هذا في الآية مع سيد المتوكلين محمد صلى الله عليه و سلم .

هـ- مهما أثخن المسلم بالجراح و التقهقري والتراجع فلا ينبغي له أن يتضعضع أو ان يستسلم لليأسأليس الله معه بنصره وتأييده.

و- إن من الخطأ القادح أن نريد " تحقق كل شيء بأمر الله التكويني كُنْ فَيَكُونُ فذلك إلغاء لوجود الإنسان، وإهمال لدوره وفعاليته في الحياة، وإن عزيز النفس لا يقبل عادة أن يمنح من غيره كل شيء، وهو منتظر التقاط النتائج، وتقديم الانتصارات على طبق من ذهب، لذا فالعمل شرف، والجهاد فضيلة وإثبات الذات مظهر تكريم وإعزاز".[1]وهذا ما يبعث الأمل ويزكي الهمم.

[1] التفسير الوسيط: وهبة بن مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٢ هـ، ج١، ص٢٤١.

الخاتمة

ضمنت هذه الدراسة نزراً يسيراً من الهدايات القرآنية التي -أزعم والله أعلم- لو أخذ بها المسلم المعاصر لنهض من غفوته واستأنف حضوره وشهادته، **وفيما يأتي أذكر أهم النتائج التي خلص لها البحث:**

١-الحث على العلم بكتاب الله سبحانه، والعمل بما فيه، بجد و الاجتهاد.

٢-معرفة أن أعظم سبب لما أصاب ويصيب المسلمين من تخلف، وذل وهوان، وتسلط الكافرين والمنافقين، هو تخلي المسلمين عن مسؤولية الشهادة على الناس.

٣- الحث عل الاتصاف بصفة الرحمة، ويؤخذ هذا من تنكير الرحمة، وهذا التنكير يدل على أن الرحمة صفة محورية في الاسلام.

٤-منهج الإسلام منهج إيجابي، يحث على بث الأمل والفأل الحسن، ومجانبة اليأس والحزن.

٥-من أسباب الحزن والهوان ضعف اليقين برفع الله عز وجل لهذه الأمّة.

قائمة المصادر والمراجع

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): بيروت – لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨ هـ.

٣. البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله (المتوفى : ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح القاهرة دار الشعب، ط١ ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٤. التحرير والتنوير: ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، بيروت – لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠٠ -٧٧٤ هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢ ،١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٦. تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغى: مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، دط، دس.

٧. تفسير المنار: محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى : ١٣٥٤هـ): مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

٨. التفسير الوسيط: وهبة بن مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٢ هـ.

٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ): تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، ص٧٠.

١٠. جامع البيان في تفسير القرآن : ابْنُ جَرِيرٍ الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى : ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، د ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١١. الجامع لأحكام القرآن- تفسير القرطبي: القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١٢. الحاكم: محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١ ، ١٤١١ – ١٩٩٠م.

١٣. الدر المنثور في التفسير بالماثور: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت (٩١١هـ) ، تحقيق : مركز هجر للبحوث، مصر، دار هجر، دط، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٤. زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢ هـ.

١٥. طه عابدين طه وآخرون: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، ، الدمام، مكتبة المتنبي، ط١، ١٤٣٨ هـ- ٢٠١٧ م.

١٦. مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي: موطأ الإمام مالك (رواية يحيى الليثي)، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، مصر، دار إحياء التراث العربي، د ط، دس.

١٧. محاسن التأويل: القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢ هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

١٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، - ١٤٢٢ هـ.

١٩. معالم التنزيل: البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى : ٥١٠هـ)، محيي السنة ، تحقيق : محمد عبد الله النمر، وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٢٠. معجم مقاييس اللغة: ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن زكريا، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الفكر، دط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢١. مفاتيح الغيب: الرازى: محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى، بيروت، دار إحياء التراث العربى، دط، دس.